

## الطريقة التاريخية:

تتضح الأهمية البحثية للطريقة التاريخية بتحديد مفهوم الطريقة كما سبق أن بينّا وتحديد التاريخ دلالة ومعنى.

### التاريخ:

التاريخ كما ورد في لسان العرب المحيط هو "تعريف الوقت"<sup>35</sup>. وبما أنه (الوقت) إذاً فهو المحتوى على الزمن الماضي والحاضر والمستقبل، أي أنه الوقت الذي تستغرقه التجارب والظواهر والقضايا والحياة بشكل عام، ولذا يعتبر التاريخ السجل

العام والميدان الواسع الذي تُسجل فيه الأحداث وهو المستوعب لكل ما يحدث، لهذا يكون التاريخ ملكاً عاماً ليس للأحياء فقط بل للماضين والآتين.

التاريخ هو المتضمن للمواقف والظواهر والأحداث التي نعتز بها ونفتخر بما هو إيجابي فيها ونأسف على بعض المواقف الفردية السلبية التي أرتكبت نتيجة الطمع والخوف والتقرب لمن لا ينبغي التقرب إليه زلفى، ومع أنها تحتوي على إيجابيات ذات أهمية عالية للحياة الحاضرة عندما تكون محتوية لمضامين العبر إلا أنها لا تخلوا من النواقص حيث لا كمال إلا لله تعالى، ولهذا فهي تستوجب البحث في أغوارها لمعرفة المعطيات الإيجابية والسلبية من أجل أخذ العبر لمستقبل أفضل.

والتاريخ هو السجل المفتوح للحاضر والمستقبل والمستوعب للماضي، وبذلك يعتبر ملكاً عاماً لأنه صناعة عامة فسهما حاول البعض أن يطمس شيئاً من معالمه أو يزورها فلن يستطيع، وذلك لأن البعض الآخر قادر على إبرازها ولو اتفقت الأغلبية على تشويه التاريخ تحت أي ظرف من الظروف القهرية، فلن يتفق الجميع، ولذا لو بقي شخصاً واحداً على قيد الحياة يستطيع أن يقول الحقيقة التي تبقى ما بقية الحياة. ولهذا فالتاريخ الحق هو الذي يصنعه الناس لا تصنعه الحكومة مع أنها قادرة على الإسهام في صنعه إن كانت ديمقراطية.

وبناء على ذلك يختلف التاريخ عن العلوم الأخرى وفق الآتي:

التاريخ زمن ووقت، والعلوم الأخرى مادة.

التاريخ مستمر ثنائية بثانية، والعلوم مستمرة بإنتاجها ولم تستمر بوقتها.

التاريخ متصل زمنياً وأحداثاً، والتشبيه التقريبي لذلك هو المسبحة، الذي يعتبر الزمن خيطها المتصل وحبائتها أحداث يحملها الزمن، وبذلك تكون العلوم كحبائات المسبحة ويكون الزمن هو الخيط الذي تنظم به.

ولذا فالتاريخ زمن ومحتوى، والزمن بدون محتوى يعتبر فراغ، والمحتوى بدون زمن استحالة. ولهذا الزمن كموجود علة وجود المحتوى فلولاً الزمن والحركة ما كان المحتوى، ولولا المحتوى ما صنع تاريخ.

إذاً يتكون التاريخ الذي نقصده من زمن ومحتوى، وفي الزمن يحدث المحتوى أو يتكون، وبالمحتوى ويراجع الزمن، وكلاهما (الزمن والمحتوى) في زيادة مستمرة إلا أن الزمن متصل، والمحتوى منفصل، ومن الزمن والمحتوى تتحقق الحياة التي هي الفترة المؤقتة من التاريخ بالنسبة للأفراد والجماعات والمجتمعات، ومع وجود علاقة بين الزمن والمحتوى إلا أن النهايات لا تكون ذات علاقة، فالمحتوى يصنع في الحياة من الأحياء، وعندما ينتهي الأحياء وتقوم القيامة يبقى الزمن شاهداً وحافظاً للمحتوى الذي توقف عن الزيادة، وحتى في الحياة عندما تنتهي حياة فرد ما أو جماعة ما فلا تنتهي الحياة بانتهاء حياتهم، ولكن إن كان منهم صنّاع تاريخ فسيبقون أحياء عند ربهم بما تركوا من محتوى عظيم، مصداقاً لقوله تعالى: {وَلَا تُخْسِبَنَّ الَّذِينَ هُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَالُهُمْ بَلْ أَمْوَالُهُمْ حَبْدٌ رَبُّهُمْ يَرْزُقُونَ فَرِجِينَ بِمَا أَنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} <sup>36</sup>.

ولأن الأعمال الخيرة تبقى فإن صدر التاريخ خير حافظ لها، وأن الله تعالى خير مجازٍ عليها، ولهذا الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل الحق هم أحياء عند ربهم وأحياء في التاريخ، ولهذا تُعد الحياة هي العيش في التاريخ.

ولهذا قيمة التاريخ بما يحتويه من عبر، مصداقاً لقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} <sup>37</sup>، ولكن لمن تكون العبر؟ بطبيعة الحال لأصحاب

الغول والضمائر الرفيعة الذين يستقرون التاريخ ويستمدون العبر والمواعظ والفضائل الحميدة منه.

وقد عرّف هومر هوكيت Homer. Hockett التاريخ بأنه "السجل المكتوب للماضي والأحداث الماضية"<sup>38</sup>.

إذا اعتمدنا هذا التعريف فيكون التاريخ ماضي وقد وقع وانتهى، وكأن السجل التاريخي قد امتلأ بالأحداث وقفل، وإذا سلمنا بهذا يعني أننا سلمنا في زمني الحاضر والمستقبل اللذين يُعدّان من مكونات الوقت الذي عرّف التاريخ به كما سبق ذكره.

وكذلك إذا سلمنا بأن التاريخ هو السجل المكتوب، فإننا نسلم بأنه لم يبق لدينا ما نكتب، ولذا فإن التفتيش عن الآثار والبحث عن الحفريات لازال مستمر، وكل عثور على أية بصمات حملها التاريخ أو سطرها يتم تسجيله في الزمن الحاضر مع أنه قد وقع في الزمن الماضي ولكن زمن اكتشافه كان في الزمن الحاضر، ولهذا التاريخ لم يكتمل اكتشافه ولم ينته زمن صناعته ولم تُعقم أمهات صنّاعه ولن.

إن لا داعي بأن نُعرّف التاريخ بأنه السجل المكتوب للماضي والأحداث الماضية، وبما أن الدنيا لم يقفل سجلها، إذن بالضرورة لم يقفل سجل التاريخ، ولا تنتهي الأحداث، وبما أنها كذلك فإن التاريخ لم يكن سجلاً مقفلاً. بل التاريخ هو السجل العام المفتوح، والميدان الواسع الذي يستوعب الأحداث في زمن وقوعها، سواء أكانت هذه الأحداث قد وقعت أم تحت القيد أو لم تقع بعد، وسواء أكانت مكتوبة أم لازالت في صدور الرواة أو أنها لم تُكتب بعد، ولذا فالتاريخ هو حاضر الزمن الماضي والماضين فيه، وإذا تساءل البعض كيف؟

تكون الإجابة: ما ندرسه نحن كماضي يُعتبر للماضين حاضرا، وهكذا يُعتبر للحاضرين ماضيا وهكذا سيضل التاريخ حيا.

ويقول ابن خلدون "يُعتبر التاريخ معمل التجارب الهائل الذي تُسجل فيه تجارب الإنسانية، والمتحف الطبيعي للظواهر في مختلف درجات تطورها"<sup>39</sup>، يوضح هذا التعريف مرونة التاريخ ورحابة صدره في تقبل النقد والتفسير لما يحتويه سجله المليء بالتجارب والظواهر الماضية وعلاقتها بالمشاهدات والتجارب الحديثة بفتح صفحاته أمام الاكتشافات الحديثة. إلا أن كلمة معمل صغيرة جدا على التاريخ، إنه أوسع من ذلك بكثير لأنه ميدان الحياة وسجل نتائجها وإنه الزمن والمحتوى والحياة. وللتاريخ بصمات يمكن مشاهدتها والتعرف عليها وعلى ما ورائها، فدلائل التاريخ كثيرة، ومن خلالها يمكن معرفة الوقت الذي أنتجت فيه والعهد الذي تدل عليه والفن الذي تميزت به. وإذا عدنا شواهد التاريخ لا نحصى فمنها الآثار، والحفريات بمختلف أنواعها، والمخطوطات والنماثيل والنقوش، والزخرفة والكتب والمطبوعات كلها دلائل يمكن دراستها وملاحظتها والاستشهاد بها. فإذا أخذنا المساجد كمُشاهد في أي منطقة من المناطق أو إذا عثرنا على آثارها في أي بقعة من العالم فعلى ماذا نكل؟

إنها تدل على انتشار الدين الإسلامي وأن هناك مسلمين في تلك البقاع أو أنهم كانوا، في روسيا بعد الماركسية منعوا المسلمين من الصلاة في المساجد إلا أن المساجد بقيت ماثلة يمكن مشاهدتها علامة دالة على انتشار الإسلام، وفي ألمانيا الشرقية سابقا عندما كانت تحت الحكم الشيوعي منعت هي الأخرى الصلاة في المسجد وحولت مأذنته إلى خزانة للمياه، ومع ذلك بقي إلى اليوم علامة دالة على أنه كان مسجدا وبقي شاهدا بطابعه الإسلامي وشاهدا على عدم مقارعة الماركسية

له التي طويّت صفحاتها من التاريخ دون أن نجد من يتأسف عليها وبقي الجامع معلماً إسلامياً يدل على أن مسلمين في مدينة برلين الشرقية هم يتواجدون. ويصدق قول ابن خلدون أن التاريخ "في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، تتمق لها الأقوال، وتُصرف فيها الأمثال، وفي باطنه نظر وتحقيق وتحليل للكائنات وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها"<sup>40</sup>. وعليه نسأل:

هل هناك فرق بين التاريخ والمنهج التاريخي؟  
نعم هناك فرق.

التاريخ كما بيّناه ميدان عام تهل منه كل العلوم وفيه تُسجّل وتُعمد على سجله في البحث والدراسة. وهناك فرق في هذا الخصوص بين التاريخ، والدراسات التاريخية المتخصصة.

فالتاريخ ملك عام لكل العلوم فهو الميدان الذي يستوعبها وتثريه ويثريها. أما الدراسات التاريخية المتخصصة تستهدف التعرف على فترة أو فترات حسب اهتمامات الباحث، وكثيراً ما تكون دراسات للأحداث والمواقف الفردية والجماعية، وكل الدراسات التاريخية عبارة عن جزء من بقية العلوم التي تُشكل جزء من التاريخ، وعادة يتم التققيب في الدراسات التاريخية من أجل الآخرين قِماً وعبراً وفضائلاً ليتخطوا ويعتبروا، ومع ذلك فقد يكون المؤرخ ناقل يسرد الأحداث دون أن يوظفها خدمة للعلاقات الاجتماعية والإنسانية إلا أن القراء قادرين على استيعاب الجبر من مصادرها، وقد يحدث التحريف لبعض المعلومات من قبل بعض الباحث لأسباب ذاتية، أو أسباب سيادية أو نتيجة تأثير أداة الحكم على المعلومات أو على الباحث، وهنا قد تحدث محاولات لتزوير التاريخ لكنها صعبة وغير ممكنة لأن التاريخ لا يمثل أحد فهو الملك العام الذي لا يقتصر على الحاضرين، بل هو

الذي يمتد من الماضي إلى الحاضر ثم إلى المستقبل في حلقات متصلة لا تنفصم ولذا فإن الأجيال دائما قادرة على تصحيح ما يخلق به. وعليه:

ما هي الطريقة التاريخية؟

الطريقة التاريخية هي التي بها تُجمَع وتُستقراء المعلومة العلمية تأصيلا مع مراعاة انتظام المعلومات وفق متغيراتها الموضوعية والمكانية والزمنية أحداثا وعبرا وقصصا مع مراعاة الخصوصيات الثقافية والدينية والعرفية التي بها تتميز كل هوية من الهويات الاجتماعية.

ولذا فالباحث المتبع للطريقة التاريخية يستهدف المعلومات من مصادرها الموثوقة سوا أكانت بشرية أم وثائقية ليستقرا بها ظاهرة أم حالة من الحالات الفردية أو الجماعية أو المجتمعية أو أي إشكالية أو مشكلة تستوجب البحث تتبعا بتتبع الظروف والمتغيرات التي ظهرت فأثرت على الحالة.

ولأن موضوع هذه الطريقة يكمن في التاريخ الواسع، فإن تتبّع الباحث لموضوع بحثه أو إشكاليته البحثية يستوجب تقصيا متصلا للمشكلة أو الموضوع وإن انفصلت حلقات تماسكه عبر الزمن (الماضي والحاضر والمستقبل).

هذه الطريقة لا تقتصر على دراسة علم التاريخ بل هي الطريقة التي بها تُستقرا العلوم في غير منعزل عن مراحل نشأتها أو تكوينها وتطورها عبر التاريخ وذلك لمعرفة أثر كل متغير من المتغيرات التي أثرت فيها تأثيرا مباشرا أو غير مباشر.

ولأن لكل شيء تاريخ زمني ومكاني ولكل ظاهرة ومشكلة تاريخ لذا فكل شيئا يمكن أن يتم تناوله موضوعيا بالتقصي العلمي لا ينبغي أن يُخل عن البحث في تاريخه الذي به تأثر وأثر.

وقد يتساءل البعض:

لماذا الطريقة التاريخية؟

بدون شك نحن لا نعني إقتصارها على الدراسات التاريخية (علم التاريخ) بل لوضوحها في التاريخ العام الذي يعتبر علم التاريخ جزءا منه، مما جعل هذه الطريقة تتبع في البحث والدراسة دون أن تقتصر على علم من العلوم. ولذلك فالطريقة التاريخية هي التي يسلكها الباحث وهو مهتدي بنور التاريخ إلى غايات المعرفة العلمية.

ولهذا نعتمد الطريقة التاريخية في تفصيلها للمعلومة على الآتي:

1. موضوع أو مشكلة؛ تستوجب البحث والتقصي العلمي.
2. أدلة؛ تثبت أو تبطل ما يتعلق بالظاهرة أو الموضوع أو مشكلة البحث.
3. مصادر؛ منها تستمد المعلومات أو تستقرا وتستنبط.
4. أدوات؛ يتم استخدامها لجمع المعلومات من مصادرها أو مكانها.

هذه الطريقة لا تعتمد كما يتصور البعض على السرد والنقل بل على التخصيص الدقيق، والقياس المعتمد على قوانين اجتماعية أو طبيعية مما يجعلنا نطلق عليها طريقة العلوم بشكل عام، وجعل د . سمير نعيم يقول : "إن أي بحث مهما كان الأسلوب المتبع فيه لا عني عن الاستعانة بمعطيات المعرفة التاريخية"<sup>41</sup>.

ولأن التاريخ ملئ بالتجارب والبراهين والخجج والمعالجات والعبر، التي تقيد الباحثين وهم في حاجة لأن يعرفوها، فالبحث في أي ظاهرة أو مشكلة في العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية لا ينبغي أن يكون في منعزل عن تاريخها، ونتيجة لذلك ظهرت أهمية الطريقة التاريخية في العلوم بشقيها النظري والتطبيقي.

ولأن لكل ظاهرة أو موضوع أو مشكلة تاريخ وفي كل العلوم إذا لا بد وان تكون من بين طرق البحث العلمي طريقة تتوافق بحثا في تاريخ الحالات والظواهر والمشاكل الاجتماعية والطبيعية والإنسانية، ففي حالة البحث في تلك الحالات والظواهر

والمشاكل لا بد من معرفة أسبابها وعلاها من خلال التتبع الواعي المتعمق في المعلومة ومتغيراتها المتداخلة والمستقلة والتابعة والدخيلة، وذلك لإتجاز أهداف البحث وفروضة أو تساؤلاتها الموضوعية.

ولأن لكل طريقة مسمى فهي لا يمكن أن تتميز إلا إذا كانت تسميتها مستنبطة ومستمدة من الميدان الذي به تسمى، ولأن الطريقة التاريخية مستمدة من ميادين التاريخ الواسعة فهي سميت بهذه التسمية، ولكي تتميز أيضا لا بد لها وأن تعتمد المعلومات من مصادرها بوسائل وتقنيات دائمة في حالة تطور، وهكذا استمدت الطريقة التجريبية من التجربة التي تعد الميدان الواسع للبحوث العلمية وخاصة في العلوم الطبيعية والتجريبية، واستمدت الطريقة المسحية التي تميزت بدراسة المجتمع أو العينات المأخوذة منه كما استمدت طريقة دراسة الحالة من ميادين الحالات المستهدفة بالبحث والدراسة.

وعليه إذا أردنا معرفة الأسباب والعلل لأي موضوع أو ظاهرة ينبغي معرفة التاريخ، لأن في التاريخ تكمن الأسباب، وفي الأسباب تكمن النتائج وفي النتائج تكمن الحلول والمعالجات الموضوعية التي تجعل للتاريخ عبرة.

هذا ولم يكن الغرض من إتباع الطريقة التاريخية سرد المواقف، و تكرارها من باحث إلى آخر أو حفظ ونقل القصص والروايات، بل الهدف هو التعرف عليها وتفحص عبرها وتبينها للآخرين واستخلاص القوانين الاجتماعية وآليات حركة المجتمع والطبيعة والتغيرات التي طرأت أو أدخلت عليها وتأثرت بها أو أثرت فيها.

**صيغ الطريقة التاريخية:**

هناك صيغتين هامتين للطريقة التاريخية هما:

1- صيغة الزمن.

2- صيغة الموضوع.

ولتوضيح ذلك أتناول كلا منهما:



1- صيغة الزمن: ويقصد بها الهيئة التي يؤسس الباحث عليها بحثه عندما يود تقصي متغيراتها، مما يجعله يصوغ فروضا أو تساؤلات من خلالها يتمكن من إنجاز أهداف بحثه.

وتنقسم هذه الصيغة إلى قسمين:

أ- دراسة الظاهرة أو المشكلة أو الموضوع من الماضي إلى الحاضر وذلك بعد تحديد فترة البحث أو الدراسة، وبعد تحديد نقطة البداية من الزمن الماضي وحسب الموضوع قيد البحث، مما يجعل أسباب الموضوع كامنة في الماضي وأهدافه واضحة في الحاضر، وغاياته ماثلة في المستقبل.

وهذه تختلف عن أسباب اختيار الباحث للموضوع. فأسباب الموضوع شيء وأسباب اختيار الباحث له شيء آخر.

فإذا افترضنا الموضوع هو (الظروف التي جعلت الاستعمار عبر التاريخ يتكرر في الوطن العربي، أو في قطر منه).

لذا فإن الطريقة التاريخية هنا تستوجب من الباحث تحديد بداية الاستعمار أي تحديد الزمن وفقا لتحديد متغيرات البحث مما يتطلب من الباحث أن يركز خلال تلك الفترة على الظروف والمعطيات التي سادت المجتمع العربي أو قطرا منه وهيئته لأن يستعمر، ثم يلاحق بالبحث حسب التتابع الزمني إلى دراسة الفترة الثانية التي عاد فيها الاستعمار للوطن، ويهتم بدراسة ظروفها والمتغيرات التي أظهرتها، ثم يقارن بين تلك الفترة السابقة وفترة الزمن الحاضر لعودة الاستعمار، حتى يتمكن من معرفة الظروف التي جعلته يتكرر، أي بالبحث يتمكن الباحث من معرفة اشتراطات دخول الاستعمار للبلدان العربية واحتلاله لها، وهكذا يأتي من الماضي إلى الحاضر وهو ينتقل إلينا من خلال التتابع الزمني المتواصل للموضوع لكي يبين لنا تلك الظروف والاشتراطات التي إذا ظهرت أو تكررت تجعل الاستعمار يتكرر

ويعود، مما يجعل المجتمع مضطرا لبتقاضي تلك الاشتراطات والمبررات، وتُحدث المجتمع على أخذ العبر من التاريخ وإلا لن يتمكن من تأمين مستقبله.

ب- دراسة الظاهرة أو الموضوع من الحاضر إلى الماضي: وهذه تتطلب عودة مع الزمن الذي انقضى ولن يعود من خلال دراسة الأحداث التي وقعت فيه بتسلسل أوقات حدوثها أو ظهورها.

فإذا اعتبرنا الموضوع السابق هو موضوع البحث وهو (الظروف التي جعلت الاستعمار يتكرر في الوطن العربي، أو يتكرر في قطرٍ منه). وإن افترضنا هذا القطر هو الجماهيرية العظمى وبدأنا الدراسة في الوقت الحاضر، ونحن منطلقين ببحث من معرفة الظروف التي جعلت القواعد الاستعمارية تستمر في ليبيا حتى سنة 1970 ثم نتبع ذلك إلى معرفة الظروف التي أوجدت الاستعمار الإيطالي عام 1911، ودراسة الظروف التي جعلت الاستعمار التركي يجثم على التراب الليبي بعد خروج فرسان مالطا عنه عام 1551 ومقارنة تلك الفترة مع الفترات السابقة واللاحقة لها، أي مقارنتها مع الظروف التي أوجدت الاستعمار الإيطالي، والقواعد الأمريكية والانجليزية والاحتلال الفرنسي لجزء من الجنوب الليبي كفترات لاحقة، ومقارنتها مع الفترات السابقة، وهي الاحتلال المالطي، والأسباني الذي خرج بقوة السلاح كغيره من أنواع الاستعمار لليبيا سنة 1510، ثم دراسة الظروف التي جعلت أطماع أمريكا في احتلال ليبيا عام 1805، وهكذا يستمر البحث والتتبع الزمني في دراسة الظواهر والظروف التاريخية، والمشاكل والمواضيع بهذه الطريقة مع مراعاة الفترة الزمنية المستهدفة بالدراسة<sup>42</sup>، ولهذا كانت طريقة البحث منطاقة من صيغة زمنية وموضوعية من الحاضر إلى الماضي لأجل أن تستمد العبر التي بها يصنع التاريخ.

2 - صيغة الموضوع: كثيرا ما نجد هناك تشابه في المواضيع وكثيرا ما نجد وحدة بين المواضيع مع أن زمن حدوثها غير متصل من الناحية الزمنية مباشرة أو أنها لم تقع في مجتمع واحد، ولا أرض واحدة، ولا زمن واحد، ومع ذلك تظهر بنفس الظروف والمعطيات أو المبررات، وهذه التي تستوجب البحث عن طريق الاتصال الموضوعي، الذي جعل من الموضوع وحدة وتربط.

وقد يتبع الباحث طريقة دراسة الموضوع من الحاضر إلى الماضي أو بالعكس كما تم توضيحه، وذلك بالاعتماد على الصلة الموضوعية وليس على الصلة الزمنية. فلو افترضنا أن موضوع البحث هو (أسس تنظيم المجتمع الفاضل) وبدأنا بما هو متوفر لدينا في المجتمع العربي، وحددنا المجتمع العربي الليبي واعتمدنا على النظرية والمحاولات التطبيقية التي تستهدف تنظيم مجتمع فاضل، وانتقلنا إلى دراسة المدينة الفاضلة عند ابن خلدون والفارابي وابن مسكويه، ثم أفلاطون وأرسطو وسقراط وبركليز وكليتيكس وسولون (المشرع)، فنجد الذي يربط بين هذه المحاولات هو الموضوع وليس المجتمع الواحد، والأرض الواحدة ولا الدين الواحد، ولا الزمن المتصل بينهما.

لذا نعلم الطريقة التاريخية على الموضوعية في تجميع المعلومات وتحليلها لتمد الباحث بنتائج تستوجب التفسير العلمي والمنطقي للظواهر والمشاكل والحالات قيد البحث العلمي، ولهذا فالطريقة التاريخية هي طريقة جمع المعلومات من مصادرها سواء أكانت وثائق أم رواية أم دساتير وقوانين وتشريعات أم أي معطيات موضوعية أخرى.

**أدوات الطريقة التاريخية:**

من أهم أدوات الطريقة التاريخية الآتي:

1 . الملاحظة.

2 . المشاهدة.

3 . المقابلة.

4 . الاستبيان.

ولذا فالتاريخ شواهد وأدلة يمكن التأكد منها، ولم يكن خرافات لا أساس لها من الصحة، فالخرافات لا أدلة ثابتة لها مما يجعل صعوبة في تتبعها واختيارها مشكلة للبحث العلمي، وبالتالي فهي لا تُسند للتاريخ الذي هو الميدان الواسع للعلوم والمعارف، ولهذا كل شيء لم يكن له سنداً وأدلة يعتبر خرافة. ولأن التاريخ لم يكن الشيء المجرد بل هو ذو المعالم الآتية:

1 . الزمن.

2 . المحتوى.

3 . المكان.

4 . الحياة .

وعليه: فإن الخرافات لا تُعد من صناعة التاريخ وذلك لأنها بدون محتوى، وبدون حياة حتى وإن كان لها زمن النسيج والتكرار.

إذاً كل ظاهرة أو حادثة أو رسالة وقّعت يمكن بالتتبع التاريخي العثور عليها، أو العثور على معالمها، أو مؤثراتها، فالوثائق مادة، والمخطوطات مواد للباحث العلمي يمكنه الاستناد إليها، والتحقق منها. وكذلك المناحف وما تحتوي عليه من مواد دالة على أحداث وحضارات وثقافات ومعارف، تُعتبر أدلة وشواهد يمكن ملاحظتها ومشاهدتها والتحقق منها.

وهذا يعني أن في صفحات التاريخ يتم حفظ البصمات والأدلة والآثار، وبالطريقة التاريخية يتم التمكن منها بحثاً وتقصياً وتتبّعاً، فالآثار مواد دالة على معاني شاهدة، أما الحدث أو الظاهرة أو الحضارة تقع في فترة من التاريخ تنتهي من حيث عدم مقدرتها على البقاء الدائم، إلا أن دلائل وجودها تبقى ماثلة للمشاهدة، والملاحظة كوسيلتين علميتين يعتمد عليهما الباحث. والذين يعتقدون أن الطريقة

التاريخية تعتمد على السرد والنقل، هم مخطئون فشواهد التاريخ لا تختلف عن شواهد التجريب، الذي يعتمد على المشاهدة والملاحظة في الطريقة التجريبية. وبالطريقة البحث التاريخية يمكن الجيولوجي من البحث والتجريب في الأرض ومكوناتها من أجل التعامل مع كل مرحلة من مراحل ترسب طبقات الأرض ومكوناتها، وعلى الأعماق الممكنة، مما يجعله يبحث ويدرس التربة والأحجار بأنواعها، والمعادن وأعمارها، وهو يبحث عن تاريخها في تاريخها، وهكذا الباحث الجغرافي يبحث في المؤثرات المناخية، وسطح الأرض وما يحدث عليه من تغيرات ومؤثرات بيئية، والطبيعة والتغيرات التي طرأت عليها، كل ذلك يتطلب اتباع الطريقة التاريخية والتجريبية معا، ولهذا لا تقتصر مواضيع البحث وإشكالياته على طريقة واحدة من ألفه إلى يائه، بل في معظم البحوث العلمية طرق البحث العلمي تتداخل من أجل استكمال البحث موضوعيا.

إن الطريقة التاريخية لا تقتصر على السرد كما يظن البعض بل تعتمد على الحجة والدليل والبرهان المستند على الحقيقة، ولنا في التاريخ الشواهد التي منها:

- احتل الرومان ليبيا منذ زمن قديم، ومن يكذب ذلك فعليه زيارة ليبيا لمشاهدة وملاحظة آثاره في مدينتي لبدّة، وصبراتة.

- إن بيت المقدس محتل إلى هذا اليوم ومن يكذب ذلك أو يريد أن يتأكد عليه زيادة الأرض المحتلة (فلسطين).

- أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد مات، وأن الرسالة باقية ومن يريد أن يتأكد عليه بزيارة بلدان المسلمين ليُشاهد الكتاب، والمساجد، والقراء، والمتعبدين الذين تجسّد الإسلام في أقوالهم وأعمالهم، وعليهم أن يزور بيت الله إن تطهروا ليروا بأمهات أعينهم شواهد العبادة وتمسك المتعبدين بالأمر، وأن يزوروا مقام الرسول صلى الله عليه وسلم.

. إن باليمن سدا عظيما (سد مأرب) بفته وهندسته وتاريخه، فمن أراد أن يتأكد منه عليه أن يزور اليمن السعيد ليشاهده، ويلاحظه إذا كانت ثقته مقتصرة على المشاهدة والملاحظة وكأنهما غائبين في حد ذاتهما.

إن المتبع للمنهج التاريخي يمكنه مشاهدة وملاحظة ما يحمله التاريخ من شواهد عندما تتوفر دلائلها، ولهذا تعتبر المشاهدة، والملاحظة من الأدوات المهمة في دراسة التاريخ والبحث في أغواره.

ويقول ابن خلدون في هذا الصدد إن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب بالشاهد، والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور وزلة القدم والحياد عن حادة الصدق<sup>43</sup>، لذا فإنه من الموضوعية العلمية والبحثية أن نربط الحاضر بالسابق وهذه لا تتم إلا بإتباع الطريقة التاريخية في البحث عن المعلومة الصادقة التي بها تتم مقارنة المعطيات والدلائل بما يمثّلها أو يخالفها أو يشابهها.

وبإتباع الطريقة التاريخية يمكن الباحث من التأكد من مدى مصداقية ما يكتب عن الظاهرة أو الحالة أو المشكلة أو الموضوع، وللتأكد من التاريخ المكتوب قد يتطلب الموضوع إجراء مقابلات مع من لا حظوا أو اشتركوا أو شاهدوا ما كتب عنه.

فإذا أردنا دراسة تاريخ المجاهد العظيم الشهيد عمر المختار، فإنه من الأفضل للباحث إجراء مقابلات مع من تبقى على قيد الحياة من مجاهدين أو الذين عايشوا فترة عمر المختار، ومقارنتها مع أقوال كل الذين يتم الالتقاء بهم، ومع ما كتب عنه، هذه طريقة مهمة في البحث في التاريخ القريب. أما التاريخ البعيد لا نجد رواة له على قيد الحياة ولكننا قد نجد ما كتبوا السابقين عنه، أو ما كتب نفلا عن رواة

. إن باليمن سدا عظيما (سد مأرب) بفنه وهندسته وتاريخه، فمن أراد أن يتأكد منه عليه أن يزور اليمن السعيد لمشاهدته، ويلاحظه إذا كانت ثقته مقتصرة على المشاهدة والملاحظة وكأنهما غائبين في حد ذاتهما.

إن المتتبع للمنهج التاريخي يمكنه مشاهدة وملاحظة ما يحمله التاريخ من شواهد عندما تتوفر دلائلها، ولهذا تعتبر المشاهدة، والملاحظة من الأدوات المهمة في دراسة التاريخ والبحث في أغواره.

ويقول ابن خلدون في هذا الصدد إن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب بالشاهد، والحاضر بالذاهب فريما لم يؤمن فيها من العثور وزلة القدم والحياد عن حادة الصدق<sup>43</sup>، لذا فإنه من الموضوعية العلمية والبحثية أن نربط الحاضر بالسابق وهذه لا تتم إلا بإتباع الطريقة التاريخية في البحث عن المعلومة الصادقة التي بها تتم مقارنة المحطات والدلائل بما يماثلها أو يخالفها أو يشابهها.

وبإتباع الطريقة التاريخية يتمكن الباحث من التأكد من مدى مصداقية ما يكتب عن الظاهرة أو الحالة أو المشكلة أو الموضوع، وللتأكد من التاريخ المكتوب قد يتطلب الموضوع إجراء مقابلات مع من لاحظوا أو اشتركوا أو شاهدوا ما كتب عنه.

فإذا أردنا دراسة تاريخ المجاهد العظيم الشهيد عمر المختار، فإنه من الأفضل للباحث إجراء مقابلات مع من تبقى على قيد الحياة من مجاهدين أو الذين عايشوا فترة عمر المختار، ومقارنتها مع أقوال كل الذين يتم الالتقاء بهم، ومع ما كتب عنه، هذه طريقة مهمة في البحث في التاريخ القريب. أما التاريخ البعيد لا نجد رواة له على قيد الحياة ولكننا قد نجد ما كتبوا السابقين عنه، أو ما كتب نقلًا عن رواة

عنه، وذلك لأنه ليس بالإمكان دراسة كل التاريخ أو التأكد منه عن طريق المقابلات والملاحظات، ولكن يجوز لجزء منه، مثل الثورة الجزائرية يمكن دراستها عن طريق المقابلات مع المجاهدين الأحياء، وذلك لأن الإنسان دائما أكبر دليل على إثبات الحقائق عندما تتعلق بالموضوع وتقال بموضوعية، ولكن قد يشوبها شيء من الشك إذا كانت متعلقة به مما يستوجب على الباحث أخذ الحيطة بجعل ما يقوله الفرد عن شخصه ليس يقينا ويكون خاضع للاختيار.

ويكون هذا ردا على بعض أساتذة علم الاجتماع، وهم قلة لعدم ثقتهم في التاريخ والطريقة التاريخية بحجة عدم التسليم فيما يقوله أو تنقله مصادر البحث المعتمدة على أقوال الإنسان.

وعليه كيف يقبل هذا التحفظ من البعض وهم لا يثقون في بحوثهم في ميادين علم الاجتماع إلا على ما يقوله المبحوث (الإنسان)؟

وكأن الإنسان إنسانان واحدا للتاريخ وآخر لعلم الاجتماع، ولأن الإنسان واحدا إذن كيف لا نثق فيه في دراسة التاريخ، ونثق فيه في دراسة علم الاجتماع؟

وإذا كان الشك في الإنسان كمصدر للمعلومات إذن الشك وارد في كل باحث باعتباره أيضا سيكون مصدرا للمعلومات، وإلا هذا البعض كمن يمتلك حق الفيئو، يحق له أن يفعل ما يشاء ويحق له حرمان الآخرين منه مما جعلنا نقول: إذا كانت هناك أحقية للفيئو في الميدان العلمي يجب أن تكون للتاريخ.

وإذا أردنا أن نتفحص استعمالات المشاهد والملاحظة، والمقابلة في التحاجج معهم فأيهما أصدق للمشاهدة والملاحظة وأيسر، أن نلاحظ، ونشاهد سد مأرب، أم نشاهد ونلاحظ سلوك منحرف يعرف أنه تحت البحث والدراسة؟.

إن الطريقة التاريخية عند اتباعها من قبل الباحث في تجميع المعلومات عن سد مأرب، فإن إخضاع السد من قبله للمشاهدة، والملاحظة وكتابة كل ما يترأى له أيسر بكثير من إخضاع حقيفة الإنسان للمشاهدة والملاحظة التي يعتمد عليها



إمبريقيا. ومع أنه من الممكن مشاهدة سلوك الإنسان، وملاحظته إلا أنه من الصعب التسليم بما يلاحظ عنه.

إنّ أيهما أصدق وأيسر مشاهدة وملاحظة حقيقة الإنسان من خلال سلوكه، أم ملاحظة ومشاهدة سد مأرب وما يحتوي عليه من جهد وفن، وعلم وهندسة راقية؟ وإذا استعملت وسيلة المراقبة في التحايج أيهما فأصدق:

ما يقوله مجاهدين عن جهاد عمر المختار باعتبارهم عاصروه وجاهدوا معه، أم ما يقوله المبحوثون عند إجراء المقابلات معهم عن سلوكهم الإنحرافي؟

أعتقد أن ما يقال عن جهاد الشهيد عمر المختار من قبل المجاهدين الأحياء الذين جاهدوا معه أصدق بكثير عما يقوله المنحرف عن شخصيته المنحرفة عن قيم المجتمع وفضائله الحميدة.

وعليه: لا يمكن لأي طريقة من طرق البحث العلمي أن تُغني الباحث عن معطيات المعرفة التاريخية، والتي يؤكدّها الدكتور سمير نعيم في قوله: "إن أي بحث مهما كان الأسلوب المتبع فيه لا غنى له عن الاستعانة بمعطيات المعرفة التاريخية بالمجتمع"<sup>44</sup>.

ولذلك يكون الاتجاه الإمبريقي الذي يهتم بدراسة الظروف في زمنها الحاضر ولا يهتم بماضيها كثيرا لم يعرف أن الزمن الحاضرة عبارة عن نقطة لا اتساع لها ولا ميدان إلا بالماضي والمستقبل.

فإذا أدركنا أن نميز الزمن من خلال الكلمة نجد أن الزمن كالحبل ما جذب منه أو سحب أصبح ماضيا، وما لم يجذب أو يسحب منه يعد في المستقبل، وما هو الآن على ظهر البكرة التي يجر عليها هو الحاضر، ولهذا كل الزمن لا بد وأن يمر على الحاضر كبكرة لجر الحبل عليها. أي أن ما يعتقد البعض في الحاضر

عليهم أن يعرفوا ضرورة وقوعه في الماضي سريعة جداً، وإذا أنكروا الماضي، فإنهم أنكروا حاضريهم بالضرورة. وبما أن ذلك يرتبط بحياة الإنسان، إذا حياة كل الناس لا تتكون إلا بالزمن الماضي والزمن الحاضر. أما المستقبل فلم يكن في حياة الناس لأن مستقبل الناس بعد الموت وهو مستقبل معروف، أما ما دونه بالنسبة للإنسان لا يمر إلا بزمنين هما الماضي، والحاضر وهكذا الحاضر يستمر والماضي يزداد تراكمًا ويبقى الأمل معهما مستمرًا.

### خطوات الطريقة التاريخية:

ولأن طرق البحث العلمي واحدة فإن اتباعها يتطلب الخطوات الآتية:

- 1 . تحديد مشكلة البحث أو موضوعه.
- 2 - تحديد أهداف البحث.
- 3 - تحديد فروض البحث أو تساؤلاته.
- 4 . تحديد مصطلحات البحث.
- 5 . استطلاع الدراسات السابقة .
- 6 - جمع المعلومات والبيانات.
- 7 - تحليل المعلومات.
- 8 - استخلاص النتائج أو الاستنتاجات وعرضها.
- 9 . تفسير النتائج.
- 10 - كتابة التقرير.

وعليه كل طريقة تتبع هذه الخطوات تعتبر طريقة من طرق البحث العلمي، ومن يعتقد أن تحديد الأسباب هو أحد خطوات الطريقة التاريخية أو أي طريقة من طرق البحث العلمي فقد أخطأ كثيراً، فالأسباب هي التي يبحث الباحث من أجل أن يتعرف عليها وإن تعرف عليها أو عرفها تمكن من معرفة العلة التي من أجلها يبحث أو يدرس.

مصادر معلومات الطريقة التاريخية: تنقسم إلى الآتي:

1- مصادر بشرية : وهم شهود الحيات، والمعاصرون، والمشترون في الموضوع قيد البحث أو الدراسة .

2- مصادر مكتوبة ومشاهدة: وتنقسم إلى الآتي:

أ- مخطوطات: بعد إخضاعها للنقد الداخلي بما تتضمنه من نصوص ولغة، وأسلوب، وشواهد، وبراهين وحجج، وتعرضها للنقد الخارجي من حيث الزمن الذي كتبت فيه، والزمن الذي تتحدث عنه، وعلاقتها بما كتب في مجال نصوصها ومضامينها أو ما كتب عنها.

ب- الوثائق الرسمية من مقلات وأفكار، وأشعار وسجلات، وتقارير، وصحف معتمدة، والمذكرات والمراسلات الرسمية والمذكرات الخاصة التي تعتبر هامة لحياة الفرد إذا كان صاحب الحالة المدروسة من الذين يعانون من أمراض نفسية واجتماعية من خلال البحث التتابعي لتاريخ حياته والظرف المسببة والمحيطه بحالته والمؤثرة فيها.

ج - الآثار، والتحف، والرسومات، تعتبر شواهد مادية يمكن مشاهدتها وملاحظتها.

الفوائد العلمية المترتبة على استخدامات الطريقة التاريخية:

1- أخذ العبر من التجارب الماضية المثبتة .

2- تمكن من معرفة التاريخ الذي يحتوي على كل مجرب، والبحث عن المجرب وفي المجرب هو البحث عن الحقيقة التي يسعى الباحث للتقريب عنها كدلائل ومصادق علمية.

3- تمكن من التتبع الزمني والموضوعي باعتبار الزمن الحاضر نقطة انطلاق للبحث في الموضوع الحاضر أو السابق من خلال استقصاء المعلومات والبيانات، ومراعاة المتغيرات التي كانت والتي استحدثت على الموضوع سلبيا أو إيجابيا والتعرف على مسبباتها، وأثارها الرئيسة والجانبية.

4- تُمكن الباحث من فهم الأحداث والظروف الخاصة بكل حالة وخصوصيتها التي بها تُمتاز عن غيرها من الحالات ويعتبر التحليل العلمي والتفسير العلمي هما الممكنان من كشف الحق وإظهارها لحيز المعرفة الوافية.

5 . تُبين للقراء أن الأحداث التاريخية متداخلة وتتداخل فيها عدة أسباب لا ينبغي التغافل عنها، أو إهمالها حتى يكون التفسير لنتائج التاريخ مقصورا على سبب واحد أو عليه بعينها.

6 . تُمكن من تفسير القضايا التاريخية وفقا لظروفها وخصوصيتها المكانية والزمانية والموضوعية.

7 - تُستمد الطريقة من الموضوع قيد البحث ولا تُستمد من غيره ولهذا فكل طريقة موضوع للبحث العلمي تناسبه ويتوافق معها، ولهذا لا تُروم طريقة البحث التاريخي لمشاكل البحث وظواهره تُروىما تُعسفيا.

8 - تُمكن من تحري الصدق، والنزاهة، والتأكد من صحة ما يسجله الباحث من أحداث، وأفكار، ومواقف وظواهر والابتعاد عن التحيز الذي يضعف الموضوع أو ينحرف به عن جادة الصواب.

9 - الاعتماد على المصادر في كتابة التاريخ، أو في أخذ الجبر منه، والابتعاد عن التبع الهامشي الذي لا يصاحبه اليقين وذلك لافتقاده للمصادر والبراهين الموضوعية.

10 - تُمكن من التبين الممكن من النقد البناء في تناول القضايا والأفكار والمواضيع، وكذلك تمكن من معرفة آراء شهود العيان وأقوالهم أو آراء الناقلين والملاحظين، والتأكد من الوثائق، وإخضاعها إلى النقد الداخلي والخارجي.